الأثر العسكري في اختطاط المدن الاسلامية

الدكتور طاهر مظفر العميد
كلية الآداب – جامعة بغداد

اقام العرب في صدر الاسلام العديد من المدن منذ عهد الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) وحتى بناء مدينة سامراء ، ولقد كانت الدوافع التي حفزت الخلفاء على تأسيس تلك المدن متعددة ، منها العوامل العسكرية والاقتصادية والسياسية والمناخية والصحية والطبيعية ، وسوف نقتصر في بحثنا هذا على العوامل العسكرية .

العوامل العسكرية :

تتفق المراجع العربية في ان مدينة البصرة هي اول مدينة مصرت في الاسلام خارج الجزيرة العربية . ولعل الباعث الرئيس الذى دفع الخليفة الراشدى الثانى عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) ان يأمر بتمصيرها هو الباعث العسكرى ، نظرا للظروف العسكرية التي واكبت الفتوحات العربية الاسلامية في العراق ورغبة من الخليفة في تركيز القوة الحربية في جنوبي العراق لكي يتخذ منها المجاهدون العرب قاعدة لاسناد وجودهم في هذه المنطقة ، ثم الانطلاق منها الى المناطق الشرقية حيث تتواجد القوات الفارسية التي بدأ المسلمون في مناهضتها والالتقاء معها في مناطق متعددة من العراق تمهيدا لتفتيت قوتها وتصفية وجودها وتمكين القوات العربية الاسلامية ان تتخذ لها مواقع في هذا القطر تمهيدا لنشر رسالة الاسلام التي حملها اولئك المجاهدون .

ومن المؤكد ان الخليفة عمر بن الخطاب كان يدرك كل الادراك اهمية موقع البصرة العسكرى في امداد الجيش الفارسي بالاسلحة والمؤن ، والمقاتلين والحاجيات الضرورية الاخرى . المتواجدة في المناطق الوسطى من العراق يتبين هذا في وضوح من رواتيين الاولى اوردها الطبرى فقد كتب الخليفة عمر لقائده

عتبة بن غزوان (١) « فقد فتح الله جل وعز على اخواتكم الحيرة وما حولها وقتل عظيم من عظمائها ولست آمن ان يمدهم اخوانهم من اهل فارس فأني اريد ان اوجهك الى ارض الهند لتمنع اهل تلك الجيزة من امداد اخوانهم على اخوانكم وتقاتلهم ، لعل الله يفتح عليكم (٢) » والرواية الثانية اوردها ياقوت وهي قريبة من رواية الطبرى السابقة فأشار بأن عمر بن الخطاب كتب الى عتبة بن غزوان : « ان الحيرة قد فتحت فأت انت ناحية البصرة واشغل من هناك اهل فارس والاهواز وميسان عن امداد اخوانهم (٣) » لذلك فقد رغب الخليفة عمر اشغال القوات الفارسية المتمركزة في جنوبي العراق عن مساعدة بقايا القوات الفارسية التي انهكتها معارك القادسية والحيرة .

والواقع ان العرب قد عرفوا منطقة البصرة قبل تمصيرها ، اذ ان بعض الروايات التاريخية تشير الى تجريد حملات عسكرية اسلامية على منطقة الخريبة (٤) قبل ان يشرع عتبة بن غزوان في تأسيسها . وقد روى الطبرى ان قطبة بن قتادة كان يغير بناحية الخريبة ... فكتب الى عمر يعلمه مكانه وانه لو كان معه عدد

---

(١) عتبة بن غزوان : هو جابر بن وهيب بن نسيب أحد بني مازن ابن منصور بن عكرمة بن خصفة حليف بني نوفل بن عبد مناف . كان ممن اسلم في مكة ومن المهاجرين الا وائل ، واحد قادة فتح العراق ، ومؤسس مدينة البصرة ، توفي عام ١٦ للهجرة وهو راجع من المدينة المنورة الى البصرة (انظر البلا ذرى ، فتوح البلدان ، صفحة ٣٥٠ ، وياقوت معجم البلدان ، المجلد الأول ، صفحة ٤٣٢) .

(٢) الطبري ، الجز الثالث صفحات ٥٩٠ – ٥٩١

(٣) ياقوت ، معجم البلدان ، المجلد الا ول ، صفحة ٤٣١ .

(٤) الخريبة : هي – كما ورد في معجم البلدان لياقوت ، الجزء الثاني ، صفحة ٣٦٢ – تصغير خربة وسميت بذلك فيما ذكره الزجاجي لأن المرزبان كان قد شيد عنده قصرا ثم خرب بعده ، وعندما نزل المسلمون منطقة البصرة واسسوا فيها مدينتهم كانت هناك تلك الخرائب فسموها الخريبة ، ويقول حمزة في نفس المرجع ، انه عندما بنيت البصر . اقيمت الى جانب مدينة عتيقة من مدن الفرس كانت تسمى « وهشتا باذ اردشير » فخربها المثنى بن حارثة الشيباني بشنه الغارات عليها ، وحينما تقدمت العرب البصرة سموها الخريبة وتعنى وهشتاباذ اردشير ، بالعربية موطن فردوس الملك اردشير (انظر انستاس مارى الكرملي ، لغة العرب (١٩٢٧) صفحات ٦١٠ – ٦١١) .

يسير ظفر بمن قبله من العجم وتفاهم من بلادهم ، وكانت الاعاجم بتلك الناحية قد هابوه بعد وقعة خالد بنهر المرأة ، فكتب اليه عمر . انه آتاني كتابك انك تغير على من قبلك من الاعاجم ، وقد اصبت ووفقت اقم مكانك ، واحذر على من معك من اصحابك حتى يأتيك أمرى ، فوجه عمر شريح بن عامر ، أحد ابني سعد بن بكر الى البصرة . فقال له كن رداء للمسلمين بهذه الجيزة ، فاقبل الى البصرة ، فترك بها قطبة ومضى الى الاهواز حتى انتهى الى دارس وفيها مسلحة للعجم فقتلوه (٥) » .

وكانت مسلحة العجم في الخريبة مشحونة بالجند المقاتلين اثخن المسلمون جراحها بتوالي الغارات عليها ، فأضعفوها وشلوا مقدرتها الدفاعية ، وتفيد بعض النصوص التاريخية ان خالد بن الوليد مر بالخريبة سنة اثنتى عشر قادما من اليمامة والبحرين في طريقه الى الحيرة ، وانه لم يرحل من منطقة البصرة حتى اتم فتح الخريبة (٦) .

وبعد ان استولى العرب على مسلحه الخريبة اتخذوها قاعدة لهم للوثوب على مسالح الفرس الاخرى القريبة منها بغية اضعاف قدرتها العسكرية الدفاعية (٧)

اتخذ القائد عتبة من مكان الخريبة موضعا للانطلاق في مهاجمة القواعد العسكرية الفارسية القريبة منها ، وقد كان في مسلحة الابلة (٨) خمسمائة من

---

(٥) الطبرى ، الجزء الثالث صفحة ٥٩٣ .

(٦) ياقوت ، معجم البلدان ، المجلد الاول ، صفحة ٤٣٠ ، ويضيف ياقوت ان خالدا أخلف بها رجلا من بنى عامر وانه قدم نهر العراة وفتح القصر صلحا ومهما يكن من امر فان الواقدى ينكر ان خالد مر بالبصرة فيقول : انه حين فرغ من امر اليمامة والبحرين قدم المدينة ثم سار الى العراق على طريق فيد والثعلبية .

(٧) ياقوت ، معجم البلدان ، المجلد الاول ، صفحة ٤٣٠ .

(٨) الأبلة : وكانت تسمى ارض الهند كما اشار الطبرى في تاريخه المجلد الثالث ، صفحة ٥٩٠ ، وياقوت في معجمه الجزء الاول ، صفحة ١١
وكانت مرفأ للسفن القادمة من البحر الهندى والبحر العربي والصين كما ذكر الطبرى في تاريخه ٣ / ٥٩٤ .

الجند الفرس الاساورة يدافعون عنها . وتمهيدا لاحتلال الابلة تحرك عتبة بمن معه من المجاهدين فنزل في مكان دون الاجانة (٩) حيث اقام فيها شهرا ، فخرج اليه مقاتلوا الفرس في الابلة لمواجهة جيشه فانتصر عليهم (١٠) .

ويشير الطبرى ان عتبة بن غزوان قاتل صاحب الفرات ، ومعه اربعة آلاف مقاتل وانتصر عليها ، ووقع صاحب الفرات اسيرا (١١) .

وتفيد بعض النصوص التاريخية ان عتبة حينما قدم الى منطقة البصرة كان يصحبه ثمانمائة من المجاهدين (١٢) الدين كون منهم نواة جيشه الذى قاتل به جيش الفرس .

والظاهر ان المكان الذى اختير لاقامة مباني البصرة عليه ، قد وافق رغبة الخليفة عمر بن الخطاب ، اذ اشار عتبة بعد أن تفحص موضع الخريبة فقال :

---

(٩) الأجانه : يوضح البلا ذرى – في فتوح البلدان صفحة ٣٥١ ، وياقوت في المعجم الجزء الاول ، صفحة ٨٣٢ – بأنه كان لدجلة العوراء وهي دجلة البصرة خور ، والخور طريق للماء ، لم يحفره احد يجرى فيه ماء الا مطار اليه ويتراجع ماؤها فيه عند المد وينصب في الجرر ، وكان طوله قدر فرسخ ، وكان لحده مما يلي البصرة غورة واسعة تسمى في الجاهلية الاجانة وسمته العرب في الاسلام الحزارة وهو على مقدار ثلاثة فراسخ من البصرة بالذرع والذى يكون فيه نهر الابلة كله اربعة فراسخ ومنه يبتدى النهر الذى يعرف اليوم بنهر الاجانة .

(١٠) يصف الطبرى في تاريخه ٣ / ٥٩٤ تلك المعركة فيشير بان عتبة جعل قطبة بن قتادة وقسامة بن زهير المازني في عشرة فوارس وقال لهما كونا في ظهرنا فتردان المنهزم ، وتمنعان من اراد من وارئنا . ثم التقوا فما اقتتلوا مقدار جزر وقسمها حتى منعهم الله اكتافهم ، وولوا منهزمين حتى دخلوا المدينة ، ورجع عتبة الى عسكره ، فاقاموا اياما والقى الله في قلوبهم الرعب ، فخرجوا عن المدينة وحصلوا ما خف لهم وعبروا الى الفرات وخلوا المدينة ، فدخلها المسلمون فاصابوا متاعا وسلاحا وسبيا وعينا فاقتسموا العين ، فاصاب كل رجل منهم درهمان وولى عتبة بافع بن الحارث اقباض الابلة ، فاخرج خمسة ، ثم قسم الباقي بين من افا الله عليه وكتب بذلك مع نافع بن الحارث .

(١١) الطبري ، الجزء الثالث صفحات ج٥٩ – ٥٩٢ .

(١٢) البلا ذرى ، فتوح البلدان ، صفحة ٣٥٠ ، ويشير ياقوت في معجمه الجز الاول ، تصفحة ٤٣٢ الى عدد جند عتبة كان ثمانمائة ويذكر ياقوت في رواية اخرى منسوبة الى نافع (بن الحارث بن كلدة) بأن عدد الجند بلغ ثمانة قبل ان يهاجموا الأبلة .

ان امير المؤمنين امرني ان انزل اقصى البر من ارض العرب ، وادنى ارض الريف من ارض العجم (١٣) .

وهكذا يتوضح ، ان الهدف الذى اقيمت من اجله مدينة البصرة هو الهدف العسكرى واذا كان بناء هذه المدينة يخدم رغبة الخليفة عمر بن الخطاب في تركيز القوة العسكرية الاسلامية في جنوب العراق لكي تكون قاعدة تجمع القوات العسكرية ثم الانطلاق منها الى المناطق الشرقية حيث توجد القوات الفارسية التي قهر العرب المسلمون شوكتها في القادسية والمدائن والحيرة فأنحسرت عن هذه المواقع وبدأت تلملم شملها في شرقي دجلة لتتأثر من المسلمين ، فأن اتخاذ مركز عسكرى آخر في وسط العراق يحقق هدف القوات الاسلامية الموجودة في هذه المنطقة لكي تجمع فصائلها في مكان اشبه بمعسكر ترحيل ، كما يطلق العسكريون عليه اليوم فتجعل من نفسها قوة ضاربة تنطلق من المركز لتقاتل الاعداء ثم تؤوب اليه عندما تحقق الغرض من انطلاقها .

لم يكن هذا التصور بعيدا عن الخليفة عمر ، ولكي يحقق هذا التصور في المجال العملي على امتداد رقعة المعركة كما حققه في البصرة ، كتب الى قائده سعد بن ابي وقاص يأمره ان ينخذ للجيش الاسلامي المحارب مركزا يقيمون فيه وقت السلم ، وينطلقون منه حين تأذن الحرب ، كما قال في رسالته الى قائده سعد : « ان يتخذ للسلمين دار هجرة وقيروانا (١٤) » .

وكان القائد سعد بن ابي وقاص ، يرى بعد انتصاره على الفرس في المدائن واستيلاءه عنوة على اسبانبر وكردبنداد (١٥) ان ينزل بجنده في هذا المدينة الكبيرة (١٦) التي تتوافر فيها وسائل المنعة فضلا عن كونها مدينة متكاملة

---

(١٣) الطبرى ، حوادث سنة ١٤ هـ ، الجز الثالث صفحة ٥٩٤ .

(١٤) البلا ذرى ، فتوح البلدان ، صفحة ٢٧٥ .

(١٥) البلا ذرى ، فتوح البلدان ، صفحة ٢٧٥ .

(١٦) المصدر السابق .

المرافق العمرانية والاجتماعية وأنها لاتحتاج الى عمل وجهد من الجند الفاتحين لتكون محل سكناهم ، فأمر جنده نزول المدائن .

ولقد اعتاد قادة فتح العراق والشام ومصر ان يشعروا الخليفة عمر بكل ما يحدث من معارك وفتوحات واستيطان ، وكان الخليفة عمر قد الزم جيوشه بان لايتخذوا اى قرار مهم الا بعد استشارته . وانطلاقا من هذا المبدأ كتب القائد سعد بن أبي وقاص ، باخبار الفتح والاستيلاء على المدائن الى الخليفة عمر معلما اياه نزوله مع الجند في المدينة واتخاذها محلا لسكناهم .

واذا كان القائد سعد يميل الى سكنى المدائن ، فأنه كان يزن ميله هذا بنظره القائد الذى يحرص على توفير الوقت للجند ، ومنحهم الوقت الكافى للراحة بعد الانجاز الكبير الذى حققوه في جميع المعارك التي خاضوها ، فأن نظرة الخلافة في مركزها بالمدينة المنورة كانت ابعد في تقديرها ، وأشمل في قراراتها ، اذ كما هو معروف عن الخليفة عمر انه كان شديد الحرص في ان يترك للقادة العسكريين اتخاذ القرارات الآنية التي تتعلق بالمعارك ، وفق مايتطلبة مكان المعركة وزمانها ، اما تلك القرارات التي يتوقف عليها نضال المسلمين وجهادهم في الدعوة ونشر الاسلام ، وفي الحفاظ على مقومات الامة التي تصون لها كيانها ، وفي الالتزام الكامل بالابقاء على ارواح المجاهدين بعيدا عن خطر الاعداء جسديا وفكريا. فأن البت فيها مرهون الى الخليفـــة .

ومن هذا المنطلق ، اقبل رسول الخليفة الى القائد سعد يبدي عدم رغبة الخليفة في سكنى المدائن (١٧) ، ومن المؤكد ان الخليفة عمر كان يدرك كل الادراك ان الجند العرب المسلمين آنذاك كانوا جنوداً محاربين تحت السلاح وانهم سوف يبقون كذلك حتى تصل مبادىء الدين الجديد الى اوسع رقعة جغرافية ممكنة وانه من الافضل ابقائهم في أماكن عسكرية بحتة لكي يشعروا دائما ان المهمة التي قدموا لأجلها من الجزيرة لم تنته بعد . لذلك حضر عليهم الخليفة

---

(١٧) المصدر السابق .

الاشتغال بالزراعة لئلا يتقاعسوا عن الحرب ، ولئلا يميلوا الى الرخاء فيفقدوا بذلك صفتهم العسكرية وحماسهم الحربي ، غير انه سمح لهم بأعمال الارضين التي لاحق لأحد فيها ومن جراء ذلك اعلن لجيوشه ان عطائهم قائم وان رزق عيالهم جار (١٨) .

وهناك عامل آخر مهم ، شجع الخليفة عمر في الايعاز لقائده بضرورة ترك المدائن هو ان الخليفة لم يكن يأمن جانب الفرس من سكنى هذه المدينة ، اذ من المحتمل ان يتجمعوا من جديد وينقضوا على الجند العرب المسلمين في المدائن التي يعرفون مواطن القوة والضعف في قدراتها الدفاعيـــة .

واستجاب سعد الى رغبة الخليفة فأتجه نحو الغرب مسترشدا بتوجيه الخليفة الذى حدد له الاتجاه بقوله في ما كتب اليه : « ان تنزلهم منزلا غريبا » (١٩) حتى وصل الانبار وبنى فيها مسجدا (٢٠) . والظاهر ان الانبار لم تعجب القائد سعد فتحول عنها ، وتشير النصوص التاريخية ان سبب تحوله كثرة الذباب (٢١) ويرى باحث عراقي ان هذا لم يكن السبب الحقيقي لترك سعد مدينة الانبار ، ويشير ان السبب حربي بحت ، اذ ان الانبار لاتصلح من الناحية الحربية لوجود عائق طبيعي هو الفرات ومايتسبب عنه وعن بحيرة الحبانية من فيضانات ومستنقعات ولبعدها عن العاصمة المدينة ، مما يؤخر ويعرقل ارسال المدد اذا ماتجدد القتال بينهم وبين الفرس في المستقبل (٢٢) . وتحول سعد بن ابي وقاص عن الانبار ، واقبل نحو كوفة ابن عمرو ، والظاهر انها لم تعجبه لأن الماء محيط بها فتركها ٢٣

---

(١٨) ناجي معروف ، عروبة المدن الاسلامية ، صفحة ٢٦ .

(١٩) البلاذرى : فتوح البلدان ، صفحة ٢٧٧ .

(٢٠) البلاذرى ، نفس المصدر ، صفحة ٢٨٨ .

(٢١) المرجع السابق .

(٢٢) كاظم الجنابي ، تخطيط مدينة الكوفة ، صفحة ، ٢ .

(٢٣) البلاذرى ، فتوح البلدان ، صفحة ٢٧٧ .

ثم توجه نحو موضع الكوفة فانتهى الى الظهر وكان يدعى « خد العذراء » ينبت الخزامي والاقحوان والشيح والقيصوم والشقائق فاختطوها (٢٤) .

وموضع الكوفة ، من الناحية الستراتيجية ، يوفر للمدينة المنشأة الحماية العسكرية الكافية ، اذ ان موقعها في طرف الصحراء العربية وعلى ضفاف احد فروع نهر الفرات يشبع رغبة الخليفة عمر بن الخطاب في ان لايفصل بين المدن المقامة وبين مركز الدولة الاسلامية في المدينة المنورة حاجز طبيعي ، حتى يكون في مقدور الجند العرب التراجع الى الصحراء اذا ما بوغتوا بهجوم كبير من القوات الفارسية القادمة من جهة الشرق . كما ان وقوع المدينة في مكان مرتفع يبعدها عن اخطار الفيضان ، ويسلم ارضها من تجمع المياه الآسنة التي تزيد في كثرة البعوض والحشرات والهوام .

هذا في المشرق ، اما اذا عرجنا الى المغرب ، وبالذات شمالي افريقيا ، فأن العرب المسلمين فتحوا مصر ، في عهد الخليفة الثاني عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) بقيادة عمرو بن العاص (٢٥) وبعد حصار حصن بابليون الذى التجأ اليه الروم ثم فتحه (٢٦) ، ثم توجه عمرو الى الاسكندرية ففتحها ايضا (٢٧) وبعد ان فتح العرب الاسكندرية ، توجه القائد عمرو الى طرابلس (٢٨) وفتحها

---

(٢٤)) المصدر السابق .

(٢٥) ابن اسحاق ، فتوح مصر ، صفحة ٥٤ ، الواقدى ، فتوح الشام ٢ / ٥٧ ، ابن عبدالحكيم فتوح مصر واخبارها صفحة ٥٦ و ٥٨ ، السيوطي ، حسن المحاضرة ، الجز الاول ، صفحة ١٠٨ .

(٢٦) ابن عبد الحكيم ، فتوح مصر واخبارها ، صفحة ٦٢ ، السيوطي ، حسن المحاضرة ، الجزء الاول ١٠٨ ، البلاذرى مفتوح البلدان ، صفحة ٧١٥ .

(٢٧) ابن عبد الحكيم ، فتوح مصر واخبارها ، صفحة ٩١ ، السيوطي ، حسن المحاضرة ، الجز ٔ الاول صفحة ١١٩ .

(٢٨) ابن عبد الحكيم ، فتوح مصر واخبارها ، صفحة ١٧١ ، البكرى ، المغرب في بلاد افريقية والمغرب ، صفحة ١٢ . ويذكر البكري في كتابة « المغرب » صفحة ٩ ان اشفاروس قيصر هو الذى بنى مدينة طرابلس وتسمى ايضا مدينة « اناس » . ويشير في تفسير معنى طرابلس بأنها تعني بالاعجمية الاغريقية ثلاث مدن . وسماها اليونان باسم ايضا . ويضيف ان هرثمه بن اعين حين ولى على القيروان بنى لها سوراً .

في سنة ٢٢ للهجرة (٢٩) ، وكان يطمح على الاستمرار في فتح الساحل الافريقي الشمالي ، فأستأذن الخليفة على ذلك ، الا ان عمر بن الخطاب لم يوافق على توسع العرب نحو الغرب بعيدا (٣٠) وعندما استخاف عثمان رضي الله عنه ، عزل عمرو بن العاص وعين عبدالله بن ابي سرح واليا على مصر في عام ٢٥ للهجرة (٣١)

ويبدو ان الوالي عبدالله بدأ يفكر في التوسع غربا بعد توليه ادارة مصر مباشرة اذ تشير بعض النصوص انه كان يبعث المسلمين في جرائد الخيل يغيرون على اطراف افريقية (تونس) فيصيبون الكثير من الانفس والاموال (٣٢) وقد وافق الخليفة عثمان على غزو تونس في سنة ٢٧ للهجرة (٣٣) . وندب الكثير من العرب فتجمع جيش كبير (٣٤) تعداده عشرين الفا من المحاربين (٣٥) « وكان يقود الجيش الروماني « « جريجو ريان » ، فجرت معركة فاصلة في موضع يعرف بـ « سبيطلة » قتل فيها قائد الجيش الروماني ، توجه على اثرها القائد عبد الله بن ابي سرح الى مركز اقامة الروم في قرطاجنة فحاصرها حصارا

---

(٢٩) ابن عبد الحكيم ، فتوح مصر واخبارها ، صفحة ١٧١ ، ويشير ايا ان غزو عمرو بن العاص لطرابلس كان في ستة ثلاث وعشرين للهجرة .

(٣٠) ابن عبد الحكيم ، فتوح مصر واخبارها ، صفحات ١٧٢ – ١٧٣ ، ابن عذارى ، البيان المغرب في اخبار الا ندلس والمغرب ، صفحة ٨ ، ويشير ابن عبد الحكيم الى الرسائل التي تبودلت بين الخليفة وعمرو بن العاص فيذكر ان عمرا كتب الى الخليفة ..... ان الله قد فتح علينا طرابلس وليس بينها وبين افريقية الا تسعة أيام فأن رأى امير المؤمنين ان يغزوها ويفتحها الله على يديه فعل .

(٣١) ابن عذارى ، البيان المغرب في اخبار الا ندلس والمغرب ، صفحة ٨ .

(٣٢) البلا ذرى ، فتوح البلدان ، صفحة ٢٦٧ ، ابن عبد الحكيم ، فتوح البلدان ، صفحة ٢٦٧ ، ابن عبد الحكيم ، فتوح مصر واخبارها ، صفحة ١٨٣ ، ابن عذارى ، البيان ، المغرب ، صفحة ٩ .

(٣٣) البلا ذرى ، فتوح البلدان ، صفحة ٢٦٧ ، ابن عبد الحكيم ، فتوح مصر ، صفحة ١٨٧ ، ابن عذارى ، البيان المغرب ، صفحة ٩ .

(٣٤) البلا ذرى ، فتوح البلدان ، صفحة ٢٦٧ ، ابن عذارى ، البيان المغرب ، صفحة ١٠ .

(٣٥) ابن عبد الحكيم ، فتوح مصر ، صفحة ، ١٨٤ ، ابن عذارى ، البيان المغرب ، صفحة ٩ .

(٣٦) جريجو ريان ، نائب القيصر هلى شمال افريقيا من طرابلس الى طنجة كما أشار البلا ذرى في فتوح البلدان ، صفحة ٢٦٧ .

شديدا حتى فتحها (٣٧) وغزا عبد الله بن ابي سرح اراضي تونس مرة ثانية في عام ٣٣ للهجرة (٣٨) .

ويبدو ان العرب المسلمين لم يشرعوا حتى هذا العام في الاستيطان بالمنطقة التي احتلوها في غزواتهم لجنوبي تونس حتى كانت سنة ٣٤ للهجرة حين بدأ معاوية بن حديج اولى غزواته لأراضي تونس (٣٩) .

وفي عام ٤٦ للهجرة توجه عقبة بن نافع لغزو المغرب (٤٠) ويستشف مما رواه ابن عبد الحكم ان القائد عقبة قد جرد حملات عسكرية على مدن تونس بغية احكام السيطرة عليها في عام ٥٠ للهجرة (٤١) . وبعد ان انتهى من السيطرة على العديد من القصور والحصون والمدن ، قدم مع جيشه الى الموضع الذى انشأ فيه معاوية بن جديح مدينة عند القرن . باحثا عن مكان يقيم فيه مدينة ، فلم يعجبه الموضع ، فتركه وجاء الى الموضع الذى اسس فيه مدينة القيروان (٤٢) .

ومن المؤكد ان السبب الرئيس الذى دفع القائد عقبة بن نافع الى تأسيس مدينة القيروان هو العامل العسكرى الذى يخدم الجهاد المستمر والفتوح المتواصلة ، الى جانب العوامل الصحية والاقتصادية التي تلبي متطلبات الجند المنتظمين في الجيش ومصالح عوائلهم المرافقين لهم واحتياجاتهم التي تتطلبها الاقامة في هذا المعسكر الجديـــد .

ولعل اختيار عقبة لموضع مدينته بعيدا عن الآماكن المأهولة بالروم لها علاقة وثيقة بالجانب الامنى الذى كان القائد ينشده عند تأسيسه لهذه المدينة ،

---

(٣٧) ابن عذارى ، البيان المغرب ، صفحة ١٢ .

(٣٨) ابن عذارى ، البيان المغرب ، صفحة ١٤ .

(٣٩) ابن عبد الحكيم ، فتوح مصر ، صفحات ١٩٣ – ١٩٤ ، ابن عذارى ، البيان المغرب صفحة ١٤ .

(٤٠) ابن عبد الحكيم ، فتوح مصر ، صفحة ١٩٤ ، البكرى ، المغرب . صفحة ٢ .

(٤١) ابن عبد الحكيم ، فتوح مصر ، صفحات ١٩٤ – ١٩٦ .

(٤٢) ابن عبد الحكيم ، فتوح مصر ، صفحة ١٩٩ .

ويوضح القزويني هذه الناحية في روايته فيقول عن لسان عقبة : « ان اهل افريقية قوم اذا عضهم السيف اسلموا ، واذا رجع المسلمون عنهم عادوا الى دينهم ، ولست ارى نزول المسلمين بين اظهرهم رأيا لكن رأيت ان ابني هاهنا مدينة يسكنها المسلمون (٤٣) ».

واذا كانت الحملات العسكرية التي جردها المسلمون على المناطق الواقعةغربي مصر في العصر الراشدى وابان العصر الاموى ، تعود الى قواعدها في الفسطاط عقب كل غزوة دون ان تعمل على توسيع الفتح واستيطان الجند ، فأن القائد عقبة بن نافع والخلافة الاموية الحاكمة قد ادركا ان الانسحاب من المناطق المفتوحة وعدم الاستيطان فيها لايتفق والتوجه الجديد في التوسع ونشر مبادى الاسلام والدعوة اليه . ويوضح عقبة هذه النظرة الجديدة في قوله لاصحابه: « ان افريقية اذا دخلها امام اجابوه الى الاسلام ، فاذا خرج منها رجع من كان اجاب منهم لدين الله الى الكفر (٤٤) ».

ولئن افتقدت القيروان عند تأسيسها الى توجيهات الخلافة المركزية ولم تتوفر فيها مثل هذه التوجيهات والتحريات توفرها في المدن العربية الاسلامية السابقة لها ، فأن الجانب العسكرى الامني والحفاظ على ارواح الجند والمجاهدين كانا اهم ماشغل بال القائد عقبة بن نافـع .

وتتحدث النصوص التاريخية فتوضح ان عقبة اشار الى من معه من القادة والجند بضرورة اتخاذ مدينة ، فأتفق رأيهم على بناء المدينة واقترحوا عليه ان يكون موضعها على مقربة من البحر (٤٥) الا ان هذا الموضع لم يوافق رأى

---

(٤٣) التزويني ، آثار البلاد ، صفحة ٢٤٢ ، كتاب الأستبصار في عجائب الامصار ، لكاتب مراكشي ، تحقيق سعد زغلول ، صفحة ١١٣ .

(٤٤) ابن عذارى ، المغرب ، صفحة ١٩ ، كتاب الاستبصار في عجائب الامصار ، لكاتب مراكشي تحقيق سعد زغلول ، صفحة ١١٧ .

(٤٥) ابن عذارى ، البيان المغرب ، صفحة ١٩ ، كتاب الاستبصار في عجائب الامصار صفحة ١١٢ .

القائد عقبة ، فلقد كان يعيد النظر ، حصيف الرأى ، يستشعر بالخطر المحدق قبل وقوعه ، ويحسب للعدو المتربص وراء البحر حسابه ، لذا لم يوافق على ماأشار اليه اصحابه من اتخاذ المدينة قريبا من البحر ، وانما أشار عليهم ان يقيموها على مسافة من البحر (٤٦) وتؤكد النصوص التاريخية المتوفرة ان المكان الذى بنيت عليه مدينة القيروان قد اختاره عقبة بن نافع نفسه وحاز موافقة اصحابه من القادة والجند (٤٧) وقد اوضح عقبة السبب الذى حدا به الى اختيار موضع القيروان دون غيره فقال : « لقد اخترت هذا الموضع لبعده من البحر لئلا تطرقها مراكب الروم فنهلكها وهي في وسط البناء (٤٨) .

ويحدد القائد عقبة الاتجاه الذى يمكن للعرب المسلمين ان يتوجهوا اليه في اقامة مدينتهم فيقول لهم : « قربوها من السبخة فأن دوابكم الأبل ، وهي التي تحمل اثقالكم فاذا فرغنا منها لم يكن لنا بد من الغزو والجهاد حتى يفتح الله لنا منها الاول فالاول (٤٩) » .

واذا عدنا الى العراق ، فأننا نلاحظ ان الأثر العسكرى واضح في تأسيس مدينة واسط ، التي بناها الحجاج بن يوسف الثقفي في منطقة تقع جنوب غربي مدينة الكوت الحالية ، وعلى الرغم من اختلاف المؤرخين في تحديد سنة شروعه في بناء المدينة فأنه من الممكن تحديد تاريخ البناء بين سنتي ٨١ – ٨٢ هجرية (٧٠٠ – ٧٠١ ميلادية) (٥٠)

---

(٤٦) ابن عذارى ، البيان المغرب ، صفحة ١٩ ، كتاب الا ستبصار في عجائب الا مصار ، صفحة ١١٢ .

(٤٧) ياقوت ، معجم البلدان ، الجزء الرابع ، صعحة ٤٢١ .

(٤٨) المصدر السابق

(٤٩) ابن عذارى ، البيان المغر)ب ، صفحات ١٩ – ٢٠ ، كتاب الا ستبصار في عجائب الا مصار ، صفحات ١١٢ – ١١٣ .

(٥٠) للتفصيل في تحديد تاريخ بناء واسط يراجع كتاب واسط في العصر الا موى ، لعبد القادر المعاضيدى صفحات ٧٥ – ٧٩ . ويشير الباحث بأن اشازات المؤرخين تحصر تاريخ البناء بين سنة ٧٥ وسنة ٨٦ هجرية ولكن الظاهر من سير الحوادث التاريخية

ومن المؤكد ان الباحث العسكرى كان في قمة الاهداف التي سعى الحجاج الى بناء مدينة واسط ، وقد اوضح مؤرخ واسط بحشل ذلك في رواية له على لسان الحجاج قوله « اتخذ مدينة بين المصرين اكون بالقرب منهما ، اخاف ان يحدث في احد المصرين حدث وانا في المصر الاخر ، فمر بواسطة القصب فأعجبته فقال : هذا واسط المصرين (٥١) » ويبدو ان ثورة عبد اله بن الجارود في البصرة (٥٢) ، وثورة شبيب بن يزيد الشيباني في الكوفة (٥٣) وحصار للحجاج بن يوسف الثقفي في مقره بدار الامارة (٥٤) وانقلاب قائده عبد الرحمن بن محمد الاشعث عليه وهروب الحجاج الى البصرة (٥٥) وتشير بعض المصادر التاريخية ان معظم اهل البصرة واهل الكوفة قد انحازوا الى جانب ابن الاشعث وانظموا الى جيشه (٥٦) لذلك طلب الحجاج من الخليفة عبد الملك بن مروان ان يمده بالجند الشاميين فاسعفه الخليفة بجيش شامى (٥٧) .

واختلاف المؤرخين في تحديد سنة الشروع ببناء المدينة والانتهاء منها ان الحجاج امر في بنا مدينته في السنة التي قضى فيها على ثورة ابن الجارود ، ثم انه أخذ يعد العدة لبنائها ، من تعيين الموقع وشرائه وجلب المواد الانشائية وتهيئة المهندسين والبنائين والصناع والفعلة .

(٥١) بحشل ، تاريخ واسط ، صفحة ٤٣ .

(٥٢) الطبرى ، الجزء السادس صفحة ٢١١ ، ابن الاثير ، الكامل في التاريخ الجزء الرابع ، صفحة ٣٨٢ .

(٥٣) الطبرى ، الجزء السادس ، صفحة ٢٢١ ، ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ، الجزء الرابع صفحة ٣٩٥ .

(٥٤) اليعقوبي ، التاريخ ، الجزء الثاني ، صفحة ٢٧٤ ، الطبرى ، الجزء السادس ، صفحة ٢٤٠ ، ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ، الجزء الرابع صفحة ٤٠٧ .

(٥٥) اليعقوبي ، التاريخ ، الجزء الثاني ، صفحة ٢٧٨ ، الطبرى ، الجزء السادس ، صفحة ٣٣٦ ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ، الجزء الرابع صفحة ، ٤٦ .

(٥٦) الطبرى ، الجزء السادس ، صفحة ٣٤٧ ، الكامل في التاريخ ، الجزء الرابع ، صفحة ٤٦٥

(٥٧) الامامة والسياسة ، الجزء الثاني ، صفحة ١٣٥ ، اليعقوبي ، التاريخ الجزء الثاني صفحة ٢٧٨ ، الطبرى ، الجزء السادس ، صفحات ٣٣٨ - ٣٣٩ ، السعودى ، مروج ٣٣٩ ، السعودى ، مروج الذهب ، الجزء الثالث ، صفحة ١٣٢ .

وبعد حروب ضارية تمكن الحجاج من الانتصار على ابن الاشعث (٥٨) ، ومما تقدم ذكره ، نستطيع ان ندرك رغبة الحجاج الشديدة في بناء مدينة له بالعراق لكي يجمع فيها انصاره من الجند الشاميين ، بعد ان اوضحت له ثورات ابن الجارود ، وشبيب بن يزيد ، وعبد الرحمن الاشعث ، عدم ولاء اهالي المصرين البصرة والكوفة له ولأمارتـــه .

ويبدو ان موضع واسط قد اعجب الحجاج ، نظرا لما يتمتع به هذا الموضع من مزايا اقتصادية و صحية ومناخية وعسكرية ، وما دمنا بصدد بحث الأثـــر العسكرى في تخطيط مدينة واسط ، فأننا نلاحظ بأن هذه المدينة قد تأسست في غربي نهر دجلة (٥٩) فيكون نهر دجلة حاجزا طبيعيا في شرق المدينة يضفي لموقعها ستراتيجية عسكرية بالغة الأهمية . فاذا ما قامت ثورة في البصرة او الكوفة ـ حيث كانت الثورات تقوم فيها على الاغلب في ذلك الوقت ـ فأنه يصعب على الثائرين العبور من دجلة او الفرات اذا ماقطعت الجسور فتتهيأ للحجاج الفرص للاستعداد والقضاء على الثورات من مدينته المنيعة الحصينـــة واســـط (٦٠) .

كما اننا نلاحظ بأن الأثر العسكرى واضح في تأسيس مدينة بغداد المدورة ، فقد أشار الطبرى في حديثه عن بحث المنصور لموضع مدينته فقال « انه خرج بنفسه يرتاد له موضعا يتخذه مسكنا لنفسه وجنده ويتبنى به فبدأ فأنحدر الى جرجرايا ثم صار الى بغداد ثم مضى الى الموصل ثم عاد الى بغداد فقال هذا موضع معسكر صالح (٦١) » ومن هذا النص نستطيع أن نطمئن الى ان الموضع

---

(٥٨) الطبرى ، الجزء السادس ، صفحة ٢٦٣ ، الكامل في التاريخ ، الجزء الرابع صفحات ٤٧٨ — ٤٨١ .

(٥٩) اليعقوبي ، البلدان ، صفحة ٣٢٢ ، ابن رستة ، الاعلاق النفيسة ، صفحة ١٨٧ ، صفحة ١٨٧ ، المقدسي ، احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ، صفحة ١١٨ .

(٦٠) عبد القادر المعاضيدى ، واسط في العصر الاموى ، صفحة ١٠٤ .

(٦١) الطبرى ، الجزء السادس ، صفحة ٢٣٤ .

الذى اختاره المنصور كان موضعا مهما من الناحية العسكرية ، وتبرز لنا اهمية موقع بغداد الستراتيجي من حديث صاحب بغداد الذى مثل بين يدى الخليفة حينما استشاره عن موضع بغداد القديم فقال : « وانت بين انهار لايصل اليك عدوك ، وانت بين دجلة والفرات لايجيئك احد من المشرق والمغرب الا احتاج العبور وانت متوسط للبصرة وواسط والكوفة والموصل والسواد كله .(٦٢) وابو جعفر الذى عاصر الدعوة العباسية في طورها السرى والعلني وحارب اعدائها فاكتسب من ذلك خبرة عسكرية طيبة جعلت منه قائدا فذا ومحاربا قديرا ، وقائدا مثل هذا الرجل حين يسمع هذا الوصف ويجده صحيحا غير مبالغ فيه ، لابدوان يختار هذا المكان محلا لمركز دولته ، وتوسعا في بحث اهمية موضع بغداد العسكرى احب ان اتناول كلام صاحب بغداد بالتفصيل .

قال صاحب بغداد « وانت بين انهار لايصل اليك عدوك » والظاهر ان منطقة بغداد القديمة كانت تمتاز بموقعها العسكرى . ومما لاشك فيه ، ان هذا الموقع الستراتيجي الممتاز لم يخفف على الممالك والدول التي سبقت الاسلام ، فأتخذ البارثيون والسلوقيون عواصمهم بالقرب من هذا الموقع لحصانته وقوته في دفع الاعداء فضلا من ان الترع الكثيرة والنهيرات التي تتفرغ من نهرى دجلة والفرات كانت بمثابة وسائل دفاعية تصد الغزاة المعتدين وتعرقل تقدمهم (٦٣) .

ومما قاله صاحب بغداد ايضا : « وانت بين دجلة والفرات لايجيئك احد من المشرق والمغرب الا احتاج العبور ، وهذه ميزة اخرى لموضع بغداد ، تبرز اهميته العسكرية كأحسن نموذج طيب للستراتيجية الحربية ، اذ ان وجود النهرين الكبيرين ، دجلة في شرق الموضع ، والفرات في غربه ، تؤلفان خطين للدفاع عن العاصمة المنشأة والاراضي المحيطة بها ، فالجيش الغازى لها ، سواء أكان

---

(٦٢) الطبرى ، الجزء السادس ، صفحات ٢٣٤ — ٢٣٥ .

(٦٣) وتظهر هذه من قول صاحب بغداد للمنصور كما جاء في الطبرى ج ٦ صفحة ٢٣٦ بقوله : « والتدبر في المدن ان تتخذ لها الاسوار والخنادق والحصون ودجلة والفرات خنادق والمدينة امير المؤمنين » .

قادما من الشرق ام الغرب ، يتعسر على جنده وفرقه واعتدته وتمويناته العبور من النهر اذا ماقطعت الجسور ، وكذلك يصبح من السهل على جيش الخليفة العباسي احباط كل محاولة الى اقامة معبر للجند الغزاة بيسر وسهولة ، هذا فضلا عن ان الجيش الغازى يقطع عن نفسه خط الرجعة ، وتمويل القطعات بالمواد الغذائية والامدادات البشرية اذا مانجح في العبور ، اذ ان وجود النهرين الواسعين يجعلان امر توفير مثل هذه الامدادات من الصعوبة بمكان .

ويتجلى الاثر العسكرى في تأسيس مدينة سامراء ، اذ ان الباحث يدرك ان لموضع هذه المدينة فوائد ومميزات كثيرة ، وفي مقدمتها مكانها الستراتيجي الذى يضعها في موقع ملائم للسيطرة على الاجزاء المختلفة من جميع اقاليم الدولة الاسلامية بالاضافة الى ذلك فأن المياه كانت تحيط بالمدينة من جميع جهاتها ، فيحدها نهر دجلة من جانبها الغربي ابتداء من اقصى موضعها شمالا حتى حدودها الجنوبية .

وقد منح هذا الموقع ، المدينة سهولة الاتصال بكل من الاقسام الشمالية والجنوبية من العراق ، فكانت فائدته كبيرة جدا للاغراض العسكرية والسياسية والتجارية على حد سواء .

كما ان نهر النهروان بفرعيه ، يحف بموقع المدينة من جانبه الشرقي ، وهكذا فليس هناك ادنى شك ، في ان كلا من نهرى دجلة والنهروان يمنحان هذا الموقع اهمية عسكرية عظيمة ، وعلى وجه العموم ، فأن مياه هذين النهرين يؤلفان سورا طبيعيا يجعل المدينة في موضع امين (٦٤) .

وهكذا يظهر الأثر العسكرى جليا في تأسيس المدن الاسلامية البصرة والكوفة والفسطاط والقيروان وواسط وبغداد وسامراء ، وهو بلا ريب يعد اهم الاثار او العوامل التي دفعت الخلفاء والقادة المسلمين الى بناء المدن .

---

(٦٤) العميد ، العمارة العباسية في سامرا ، صفحة ٦٢ .

المراجـــــع

أبن الأثيـــر — (عز الدين علي بن محمـد)
الكامل في التاريخ ، بيروت ١٩٦٥

ابن رستة — (ابو علي احمد بن عمر)
الاعلاق النفيسة ، طبع بريل ١٨١١ م

ابن دقمان — (ابراهيم بن محمد ايدمر العلائي)
الانتصار لواسطة عقد الامصار — الجزءان الرابع والخامس ، طبع المطبعة الاميرية ، القاهرة سنـة ١٣٠٩ هـ — ١٨٩٢ م .

ابن عبد الحكم — (ابو القاسم عبد الرحمن بن عبدالله)
فتوح مصر واخبارها ، لندن ١٩٢٠ م .

ابن عذارى — (احمد بن محمـد)
البيان المغرب في اخبار الاندلس والمغرب نشر وتحقيق ج . س . كولان و أ . ليفي بروفنساك ، بريل ، ليدن ١٩٤٨ م

بحشل — (اسلم بن سهل الرزاز الواسطي)
تاريخ واسط ، تحقيق كوركيس عواد ، مطبعة المعارف بغداد ١٣٨٧ هـ — ١٩٦٧ م .

البلاذرى — (ابو العباس احمد بن يحى بن جابر)
فتوح البلدان ، طبع ليدن ، ١٨٦٦ م

البكرى — (ابو عبيد الله عبد العزيـز)

المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب ، باريس ١٩١١ م

الطبرى — (محمد بن جرير)
تاريخ الرسل والملوك .

السيوطي — (جلال الدين عبد الرحمن)
حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة ، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم ، القاهرة ١٣٨٧ هـ — ١٩٦٧ م.

الشابشتي — (ابو الحسن علي بن محمد)
الديارات ، تحقيق كوركيس عواد ، بغداد ١٩٦٠ م .

القزويني — (زكريا بن محمد بن محمود)
آثار البلاد واخبار العباد ، بيروت ١٣٨٠ هـ — ١٩٦٠ م

المسعودى — (ابو الحسن علي بن الحسين بن علي)
مروج الذهب ومعادن الجوهر ، باريس ١٨٦١ — ١٨٧٧ م .

المقدسي — (ابو عبد الله محمد بن احمد) .
احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ، ليدن ١٨٧٧ .

اليعقوبي — (احمد بن ابي يعقوب بن واضح)
البلدان ، بريل ، لندن ١٨٩٢ م .
التاريخ — بيروت ١٩٦٠

المقريزى — (الشيخ تقي الدين احمد بن علي بن عبد القادر)
المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والاثار في مصر والقاهرة والنيل ومايتعلق بهامن الاخبار ، المشهور بالخطط جزآن ، طبع المطبعة الاميرية بالقاهرة ١٢٧٠ هـ — — ١٨٥٣ .

ياقوت — (شهاب الدين ابو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموى الرومي البغدادى)
معجم البلدان — لايبزك ١٨٦٦ — ١٨٧٣ م .

المصـــــــادر :

الجنابي — (الدكتور كاظـم)
تخطيط مدينة الكوفة ، بغداد ١٩٦٧ .

العميد — (الدكتور طاهر)
نشأة مدينة البصرة ، بحث نشر في المجلة التاريخيـــــة العدد الخامس .

بغداد مدينة المنصور المدورة . مطبعة النعمان النجف ١٩٦٧ م .

العمارة العباسية في سامراء ، مطبعة الحرية ١٩٧٦ م .

المعاضيدى — (الدكتور عبد القادر)
واسط في العصر الاموى ، مطبعة دار الحرية ١٣٩٦ هـ — ١٩٧٦ م .